طرائق التفاعل والتواصل في الحياة اليوميّة بين التنظير المتعدد التخصصات والواقع المعيش: دراسة ميدانيّة لتمثلات طلبة قسم الأنثروبولوجيا بكليّة الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة سوسة–تونس"

وهيبة سعد اللاوي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سوسة– تونس

الثقافة وتحولات المجتمع بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة صفاقس– تونس

ملخص: تحاول ورقتنا البحثية التطرْقِإلى موضوع الحياة اليومية انطلاقا من تخصصات متعددة ومتنوعة، فلسفية، واجتماعية، نفسية وأدبية عالجت جميعها اليومي كمفهوم إشكالي لا متناهي التعريف، كما سنركز اهتمامنا علىالجانب الإجرائي للمسألة من خلال قيامنا بدراسة ميدانية في الفضاء الجامعي الطلابي، وتحديدا فضاء كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة سوسة–تونس، لاستقصاء وفهم تمثلات الطلبة للحياة اليومية التلقائية والبسيطة من منطلق خطاباتهم وتفاعلاتهم اليومية مع الآخرين، إضافة إلى تجاربهم المعيشة الحاملة لدلالات ومعاني مشحونةبأبعاد نفسية، اجتماعية، ثقافية، ورمزية وأيضا متَخَيَّلَةِ،مستخدمين في ذلكالتفاعلية الرمزية كتوجّه نظري والمقاربة المنهجية الكيفية،مع الاعتماد على المقابلة المفتوحة كتقنية بحثية.

تتمثل نتائج بحثنا الأولية في تمفصل النظري المتعلق بمسألة اليومي مع الواقع المعيشي المتجسّد في خطابات الطلبة.

الكلمات المفاتيح: الحياة اليومية، التنظير المتعدد التخصصات، الخطاب اليومي، التمثلات، التفاعلات.

Abstract: Methods of interaction and communication in daily life between interdisciplinary theorizing and living reality: a field study of the representations of students of the Department of Anthropology at the Faculty of Arts and Humanities at the University of Sousse-Tunisia

Abstract: Our research paper attempts to address the topic of daily life based on multiple and diverse disciplines—philosophical, social, psychological, and literary, all of which dealt with the daily as a problematic concept with infinite definitions. The paper seeks to investigate and understand the representations of the simple and spontaneous daily life among the students of the University of Sousse-Tunisia, mainly in terms of their daily discourses and interactions with others, in addition to their living experiences that bear connotations and meanings charged with psychological, social, cultural, symbolic and also imagined dimensions. Methodologically, the paper uses the symbolic interactionism as a theoretical approach and the qualitative approach, while relying on the open interview as an additional research tool. The primary results of the study are represented in the theoretical articulation of the daily issue with the living reality embodied in the students' discourses.

Keywords: Everyday life; interdisciplinary theorizing; everyday discourse; representations; interactions.

مقدمة:

كلمة سهلة الاستخدام لكنها صعبة التعريف، تبدو للعِيان بسيطة إلاّ أنها مركّبة من الناحية المفهوميّة. إنّها الحياة اليومية الحاضرة في التفاعلات بين النّاساللفظيةوغير اللفظية (الإيحاءات والتعابير الجسدية) المعبرة عن علاقتهم بذواتهم،وبالآخرين وبالفضاء المتفاعل فيه. لقد أسال مبحث اليوميّ الكثير من الحبروالجدل والنقاش من خلال تعدد التخصصات المشتغلة على الموضوع.

في هذا الإطار،تحاول ورقتنا البحثية التطرْقإلى موضوع الحياة اليومية انطلاقا من تخصصات متعددة فلسفية، اجتماعية، نفسية وأدبية،عالجت جميعها اليومي كمفهوم إشكالي لا متناهي التعريف، وسنعتمد في بحثنا على المقاربة التفهمية كمنطلق نظري لدراسة المسألة.كما سنركز اهتمامنا على الجانب الإجرائي من خلال القيام بدراسة ميدانية في الفضاء الجامعي الطلابي،

وتحديدا كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة سوسة–تونس، وذلك لاستقصاء وفهم تمثلات الطلبة للحياة اليومية التلقائية والبسيطة من منطلق خطاباتهم، وتفاعلاتهم اليومية مع الآخرين وتجاربهم المعيشة الحاملة لدلالات ومعانٍ مختلفة مشحونةبالأبعاد النفسية، الاجتماعية، الثقافية، الرمزية وأيضا المُتَخَيَّلَةِ مستخدمين التفاعلية الرمزية توجّها نظريا والمقاربة المنهجية الكيفية باعتماد المقابلة المفتوحة تقنية بحثية.

من هنا يمكننا طرح الإشكالية التالية: إذا كانت مسألة اليومي مسألةً يصعب حصرُها في تخصص علميٍّ واحدٍ فإنّ ذلك لن يمنعنا من اكتشافالتباساتها على أرض الواقع من منطلق الخطابات اليومية للطلبة العاكسة لتمثلاتهم الاجتماعية لليومي كتجربة معيشة ليهبوه تعريفا خاصًّا وذلك للاستدلال على وجود حيوات يوميّة متعددة وليست حياة يوميّة واحدة في نظرهم(الطلبة).تقودنا هذه الإشكالية إلى بلورة نتائج بحثنا الأولية المتمثّلة في إيجادالتمفصل بين النظري المتعلق بمسألة اليومي والواقع المعيشي المتجسّد في خطابات الطلبة اليوميّة. وبالتالي سنقسّم بحثنا إلى عنصريْن أساسييْن: يتمثل العنصر الأول في قراءة مفهوم اليومي بالعودة إلى الأدبيات المشتغلة عليه فلسفية ونفسية وأدبية وسوسيولوجيّة دون التغافل عن الزاوية الأنثروبولوجيّة التي كان لها النصيب الأوفر في إثارة المسألة،والتي سنؤشّر عليها في العنصر الثاني المتّصل بالدراسة الميدانية لتمثلات طلبة قسم الأنثروبولوجيا بكليّة الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة سوسة–تونس.

1– اليومي: إشكالية متعدّدة الأجوبة:

عديدة هي الكلمات والمعاني التي تصف موضوع اليومي من قبيل "عاديٌّ، بديهيّ، بسيطٌ، عابِرٌ، شارعيٌّ، تِكراريٌّ، روتينيٌّ ومعيشيٌّ"، وهي كلمات تدل مجتمعة على انفلات دلالة اليومي من كل توصيف وحصر ،فكلّما حاولنا إعطاءه تعريفا مبتدَعاً أو حصره في زاوية معينة، إلاّ ولاحتْ في الأفق أسئلة تبعث على الحيرة من قبيلِ: عن أيّ يوميٍّ سنثير الجدل المعرفي؟ هل نعني باليومي ذلك الذي يبدأ صباحا وينتهي ليلا؟هل هو ذلك السيل الجارف الذي يتدفّق باستمرار دون محدَّدٍ زمنيٍّ حاملا معه إرهاصات أنشطة وسلوك وممارسات اجتماعية تفاعلية؟ وهل اليوميُّ روايةٌ كتبها أصحابها موظِّفين مخيلاتهم الإبداعية لإنتاج نصٍّ لا يستجيب لأيّة قواعد لغويّة أو إعرابية؟ كلّها أسئلة لا نصبو من خلالها إلى إعطاء إجابة محدّدة وجاهزة لمسألة اليومي بقدر ما نسعى إلى تقديم قراءة، ربّما جديدة، لعالم اليومي الذي أسال حُبُورًا فلسفيّة، نفسيّة، اجتماعيّة، أدبيّة وغيرها من التخصصات.

لذلك كان لزاما علينا العودة إلى مختلف التخصّصات التي عالجت مسألة اليومي محاولين التأليف بينها تأليفا يمكننا من سبر خبايا المسألة وكشف درجة تعقيدها إضافة إلى تعدد وتداخل اختصاصاتها.

وقد اعتمدنا في البداية على الأطروحة الفلسفيّةالتي مثّلها الفيلسوف التونسي فتحي التريكيفي كتابه "فلسفة الحياة اليوميّة"، والذي أشار فيه إلى ثلاثِ مقاربات نظريّة لإثارة مفهوم اليوميّ وهي: الأنطولوجيّة والفنومنولوجيّة والاختلافيّة التنوّعيّة، سعى من خلالها إلى "استخراج المعنى المؤسّس لليومي وطبيعة الحركيّة التحوّليّة (...) وشروط إمكان هذا المعنى الذي يبدو وكأنه بديهي في عالم الحياة. فالفلسفة تبحث داخل الحاضر العادي اليومي حضوريّته وداخل الظاهر ظاهريّته. وهكذا لن تتخلّى الفلسفة عن كنهها ومعناها الأصلي المتمثل في التعالي والتّجريد والبحث عن المعنى وعن الكليّات."(التريكي، 2009، 64-65).ففي المقاربةالأنطولوجيّة، عاد التريكيإلى أطروحة الفيلسوف اليوناني ما قبل السقراطيّين Parménide(برميندس) الّذي "اعتبر أنّ الوجود والعقل هما شيء واحد (...) وأنّ الحضور اليوميّ للزمان والمكان لا يمكن أن يكون موضوع فلسفة إلا إذا ظهر للعقل كوحدة صماء للحضور، تضم هذه الوحدة في كنهها ماكان في البداية غائبا ومازال حاضرا."(التريكي، 2009، 65-66).

بيّن التريكي من خلال هذا القول تعاليَ العقل عن البديهيّ والعاديّ باعتبار أنّ العقل في المقاربة الأنطولوجيّة يقوم على التجريد والتعالي عن كل ما هو دنيويٌّ،علاوة على كونه متحرّك ومتنوّعُ الأنشطة والممارسات.

في المقابل، اهتمت المقاربة الفنومنولوجيّة اهتماما مخصوصا باليومي كموضوع بحثيٍّ فلسفيٍّ من خلال "فهم الدواعي العميقة التي تجعل الكائن في العالم يتمظهر من حيث هو وجود في عالم الحياة اليوميّة." (التريكي، 2009، 69)أي في عالم تسوده الديناميكية والحركيّة المستمرّة وتسيل فيه حُبُورُ الأقوال والأفعال المنتِجةِ للمعنى. حيث يتجلّى هذا الأخير في الممارسات والأحداث التي يتشكّل من خلالها عالم اليوميّات والتي بها يكون اليوميّ يوميًّا، . حسب تعبير. فتحي التريكي.

وهذا مؤشر واضح على أن اليوميَّعالم يُنتَجُانطلاقا منالتجارب المعيشة ومن التفاعلاتمع الآخرين ممّا يجعل منه عالمًا متحركا غيرُ ثابتٍ، مثّل هذا الأخير منطلقا للمقاربة الاختلافية التنوّعيّة التّي هدفت إلى إعادة "تنشيط الاختلاف ليكون خلاقا في فهمنا لواقعنا." (التريكي، 2009، 73). اهتمت هذه المقاربة بمقولة اليومي من خلال التركيز على المقاربتيْن الأنطولوجية (الوجود من

خلال العقل) والفينومنولوجية (اليوميّ من خلال التجربة المعيشة ومعناه التّأسيسي) لتقدّم لنا قراءة منفتحة على اليومي عبر مقولتيْ الهُنا والآن بالتركيز على الحاضر الذي نعبّر فيه عن وجودنا في عالم الحياة اليوميّة.

نستنتج مما سبِق تنوّع المقاربات الفلسفيّة المشتغِلة على موضوع اليومي،والتي لم تُقدم مجتمعة تعريفا جامعا وموحدالهذا اليوميّ يُساعدنا على تتبع مدلولاته والمسك بتلابيبه وتفاصيله الزئبقية التي تتغيّر بين الفيْنة والأخرى، ولا تثبت على حال واحدة.

في المقابل، وبالعودة إلى الأطروحة الأدبيّةوتحديدا أطروحة الروائي والناقد الأدبي والفيلسوف الفرنسيموريس بلانشوالذي رَمَزَ إلى غُموض مفهومَ اليوميِّ وصعوبة حصره وتفكيك مدلولاتهباعتباره"منفلِتا،وينتمي إلى التّافِهِ، والتّافههو بلا حقيقة، بلا واقع، بلا سر، ولكنه ربّما يكون أيضا موقعا لتشكّل كل دلالةممكنةٍ."(Blanchot, 1969, 305).

لقد أفصح بلانشو، من خلال هذا القول، عن انفلات مفهوم اليوميّ من المحددات الاجتماعية وكذلك العلميّة، إضافة إلى كون اليومي . في نظره . عالَم اللاانتماءأين يكون الفرد فيه نكِرةً لا يحمل هويّةً تثبت انتسابه إلى الحياة اليوميّة، الّتي لا يمكن أن تتمظهر في المكاتب أو الأماكن المغلقة بل في فضاء أرحب وأوسع، فضاء واسع جغرافيا ومناطقيا، يتراءى لنامن خلالهالمعيشُ والبديهيُّ والبسيطُ في اللقاءات والمحادثات.باختصار، إنه الشّارع الذي صَبَغَ العالَم اليوميَّ،أيْن تنعقِد فيه اللقاءات اليوميّة ويُطلَق العِنان فيه للكلمات والإيحاءات التي يُدوّن بها أصحابها تجاربهم المعيشة، وتمتزج المشاعر فيهابالمِخيالِ المساهِم في تشكّل العلاقة مع هذا اليوميّ المتكرّر.

تقودنا هذه الفكرة إلى أطروحة أدبيّة عربيّة أخرىتمخّضت عن أعمال ندوة علميّة معنونة ب:"الإنسان والمخيال"، عرض الباحثون فيها طروحاتهمعنالمِخيال في علاقته بالثقافة الشعبيّة، مُجمعِين على صعوبة تحديده من الناحية المفهوميّة. وقد حاولوا تقديم تعريف للمِخيال يُراوح بين اعتباره خزانا " من عناصر متعدّدة (...) يقع خارج العقل أو على تخوم العقل لكن له منطقه الذي يتظمه." (النويري، 2009، 183) وناشئا عن تأويل الإنسان للعالم (النويري، 2009، 183).

يتنزل اليومي من خلال هذه الأطروحة ضمن خانة الثقافة الشعبية التي تتعدد فيها الرموز والدلالات المكوّنة لهذا العالم "البديهيّ"، وهي رموز انبجست من ارتباط المِخيال باللغة وبالثقافة، اختلقها (أي الرموز) الإنسان ليُصور حاضِره المعيش بجميع تناقضاته قوليًّا وغيرُ قوْليٍّ. لذلك

يجب ألا نتغافل عن الجانب الخَطابيّ المؤثّث للحياة اليوميّة والتي تُنسَج فيه خيوط التّواصل الاجتماعي داخل فضاءِ شارعيّ لا تحدّه جُدرانُ الهندسةِ المِعماريّةِ بل جُدران هندسةٍ اجتماعيّةٍ ساهمت في انتظام ذلك الفضاء ووهبته خصوصيّة تفاعلية، تعزّزت هذه الأخيرة بالأبعاد النفسيّةِ الّتي أَبَان فيها أصحابها عن مشاعرهم الدّالّةِ على علاقاتهم بذواتهم وبالآخرين ضمن إطاريْن زمانيّ ومكانيّ مضبوطيْن اجتماعيًّا.

أيضا تُعدالأطروحةِالنّفسيّةِالفرويْديّةِواحدة من أهم الأطروحات المهتمة بالحياة اليوميّة من منظور نفسيٍّ تحليليٍّ، ففيكتاب: "علم النفس المرضي للحياة اليوميّة La Psychopathologie de la) (vie quotidienne بيّن فرويد بعض الزلّاّتالمرتَكبة في المحادثات اليوميّة وفي الكتابة من خلال استعمال مفردات لا تعبّر عن المقصد المراد تبيانه،مركزاعلى الجانب اللاواعي في الممارسات اليوميّة للأشخاص العاديّينوما يمكن أن يصيب أقوالهم من اضطراب يتعلق بالتخاطب والكلام "الذي قد يتجلى من خلال الزلّة ، في المقام الأول ، بسبب الفعل ، المتوقع أو بأثر رجعي ، لجزء آخر من الكلام أو بواسطة فكرة أخرى واردة في الجملة أو في الكل من المقترحات التي نريد ذكرها: إلى هذه الفئة تنتمي جميع الأمثلة المذكورة أعلاه والمستعارة من ميرينجر وماير ؛ لكن في المقام الثاني ، يمكن أن يكون الاضطراب بطريقة مماثلة لتلك التي حدث فيها النسيان ، (...)؛ أو بعبارة أخرى قد تكون مشكلة بسبب تأثيرات خارجية للكلمة ، للجملة ، إلى كل الكلام ، يمكن أن يكون سببها العناصر التي ليس لدينا نية لذكرها والتي يتجلى الفعل للوعي بالاضطراب نفسه. هذا وهو أمر مشترك لكلا الفئتين هو التزامن في إثارة عنصرين. لكنهم يختلفون عن بعضهم البعض، اعتمادًا على ما إذا كان العنصر المزعج في الداخل أو الخارج من الكلمة أو الجملة أو الكلام الذي يتم نطقه."(Freud, 1901,59-60).

إنّ مثل هذه الأخطاء والزلاّت التي تحدث في السيرورة اليوميّة تدلّ على كمية الكبت الذي عاشه المتفاعِل في حياته وبيئته الاجتماعية والمهنيّة التي تتجلىفي طريقة كلامه وتواصله مع الآخر في حالات الغضب أو الحزن أو الإحباط، وتجدر الإشارة إلى أنّ أطروحة فرويد أوْلت اهتماما كبيرا بعالم اللاوعي المتحكّم أحيانا في تصرّفات الأفراد اليوميّة حيث قدّمت صورة عن عالم الروتين في جانبيْه القصدي المرئيّ والخفيّ المشحون بنزاعات نفسيّة يعيشها الأفراد مع أنفسهم وتنعكس على علاقتهم بالمحيط الخارجي، ويعود ذلك إلى تعدّد التجارب التي عاشوها ليكوّنوا مساراتهم الذاتيّة الشخصيّة.

وهنا ننبه إلى أنّ الأطروحة النفسيّةلا تكفِبمفردها للإلمام بتفاصيل الحياة اليوميّة بل وجب تدعيمها بالأطروحة الاجتماعيّةأيضا، حيث قدم عالم الاجتماع الفرنسيميشال مافيزولّيتعريفا سوسيولوجيا بالغ الأهمية لمسألة اليومي، حين اعتبر أنّ الحياة اليوميّة لا يمكن اختزالها في البعد المادّي لأنّها تقترب نوعا ما من الحدس، نظرا لتعدّدية أبعادها المشحونة بالمعاني، مُفصحا عن ذلك بقوله: " أنّ الحياة الاجتماعيّة متفجّرة ومتعدّدة حتما(...)."(Maffesoli, 1979, 13).

كما أنها حياة غير قابلة للأكممة والقياس لأنّ ذلك من شأنه أن يقدّم نظرة اختزاليّة للعالم الاجتماعي وللواقع المعيش. بمعنى آخر، لا يمكن فهم المعيش باعتماد المنطق الحسابي لأنّه عالم زئبقي لا يمكن الإحاطة به إحاطة تامّة نظرا لاحتوائه علىأبعاد تكراريّة وتناقضات رمزيّة تنفلت من كل ما هو موضوعي قياسي (Maffesoli, 1979, 14) لأنّها تنبع من خطاب يومي تتداخل فيه الأبعاد التمثيليّة الذاتيّة مع الواقع الاجتماعي،تدعّمت هذه الأبعادبالمِخيال الذي أثارته الأطروحة الأدبية المذكورة سابقا، تماهيا معالطرْحالأنثروبولوجي للفرنسي

جيلبارتدوراند الذي يعرّف المخيّلة بكونها جملة العلامات والصور والرموز والاستعارات والنماذج القديمة(Durand, 1992, 60).

عبرت هذه المخيّلةعن تمثلات ثقافيّة لحياة يوميّة متعدّدة الأبعاد، تشكلت من خلال تحويل عالم اليوميّات من عالم الالتزامات والضغوطات اليوميّة إلى عالم مخيالي لا يخضع لمؤثرات صوتيّة أو صوريّة مسبقة، عالم اختلط فيه الواقعي بالخياليفشكّلا عالما يوميّا ديناميكيا كُسِر فيه الروتين وأُنتِجت فيه نصوصٌ تجاوزت كل التراكيب اللغويّة، عبّر فيها أصحابها عن ذواتهم في علاقاتهم بالحاضِر أي الآن وهنا، وهي نصوص أضفت على الحياة اليوميّة بعدا مسرحيّا.

وقد تعمّق في هذا الطرح عالم الاجتماع الكندي إرفينغغوفمانخاصة في أثره: La mise en scène de la vie quotidienne : tome 1 : la présentation de soi. والذي رأى من خلاله أن متاهات عالم اليوميّات تؤسس علاقات تفاعليّة يسعى فيها كلّ طرف إلى التّعبير عن مقاصده في حضور الآخرين وتقديم انطباع خاصّ عنه حتى يظهر بصورة مقبولة أمام المتفاعلين(Goffman, 1973, 12)، وهذا يعني أنّ تقديم الفاعل لنفسه في وجود

الآخرين مرتبط بمدى قدرته على لعب الدور بذكاءعبر إظهار ما يودّ إظهاره وإخفاء ما يودّ إخفاءه ليحافظ على وجوده داخل المجموعة.

وممّا لاشكّ فيه أنّ اليوميَّ التفاعليَّ، من منظور إرفينغغوفمان، ينبني على وضعيات تتغيّر بتغيّر الأطراف المتفاعلة وبنوعية الموضوع المُثار، وتتغيّر معها الأساليب الدفاعية والوقائية التي يعتمدها كل متفاعلٍ للحصول على قدر أكبر من المجال المحادثاتي بعد أن ينجح في المحاجَّةِ، شريطة ألا يخرج ذلك عن نطاق الضوابط الاجتماعيّة المحدِّدة للتواصل (جملة القيم المستبَطة من سيرورة التنشئة الاجتماعية الأسريّة) والتي يستحضرها كل طرف حتى تسير المحادثة على أكمل وجه. كما مثّل اليوميُّ، عند غوفمان، مسرحا محادثاتيًّا(théâtre conversationnel) مفتوحًا تُرتدى فيه أقنعة تلائم طبيعة الوضعية التواصلية، تؤشّر هذه الأقنعة على هويّة ذاتيّة تُتَشكّل أمام الآخر لحظة التواصل لتتحوّل فيما بعد إلى هويّة غيريّةٍ تحمل انطباع الطرف المقابل.

ونسوق هنا ملاحظة مهمة مفادها وجود علماء اجتماع آخرين كُثُرٌاشتغلوا على مسألة اليومي إلى جانب غوفمان،نذكر منهم عالم الاجتماع الأمريكي المؤسس للإثنوميتودولوجيا–كتوجّهٍ نظريٍّ – هارولد غارفينكل من خلال أثره: « Studies in ETHNOMETHODOLOGY » الصادر سنة 1967 حيث تجاوز فيه قراءة غوفمان للحياة اليومية في جانبيها النفسي والاجتماعي ليقدّم لنا وِجهة نظر اعتبر فيها اللهجة اليوميّة المنطوقة منطلقا لبناء معرفة علميّةٍ كونها "تقدّم الواقع الاجتماعيّ، تصفه وتشكّله في نفس الوقت" (Coulon, 2014, 3). ففي توطئة كتابه، ينقد غارفينكلالسوسيولوجيا الكلاسيكية لدى عالم الاجتماع الفرنسي إيميل دوركهايم بقوله:"على عكس بعض رواياتدوركهايم التي تخبرنابأن الواقع الموضوعي للحقائق الاجتماعية هو المبدأ الأساسي لعلم الاجتماع، يتم أخذ الدرس بدلاً من ذلك، واستخدامه كسياسة دراسية للبحث، واعتبار الواقع الموضوعي للحقائق الاجتماعية إنجازًا مستمرًا للأنشطة المنسقة من الحياة اليومية لأعضاء يستخدمون الأساليب العادية والبراعة لتحقيق هذا الإنجاز." (Garfinkel, 1967, vii).وهذا يعني أنّ الواقع الاجتماعي ليس معطًى موضوعيًّا مفروضاً على الأفراد بل نِتاجٌ اجتماعيٌّ منجَزٌ من طرف الفاعلين الاجتماعيّين إمّا قوْلاً أو سلوكًا وما يضفونه من معنى على أفعالهم. فالإثنوميتودولوجيا "هي البحث الإمبريقي في الطرائق التي يستعملها الأفراد ليعطوا معنى وفي نفس الوقت لينجزوا أفعالهم اليوميّة: تواصل، أخذ قرارات، تبرير."(Coulon, 2014, 23-24).إضافة إلى كونها تولي الأهمّية للممارسات اليوميّة

البسيطة المعبّرة عن قدرة الأفراد على بناء واقعهم الاجتماعي الناتج عن تجارب معيشة داخل اليوميّ البسيط واللامتناهي المعاني.

لقد تطرّقنا في هذا العنصر من البحث إلى تعدّدية التنظيرات المثيرة لمفهوم اليوميّ والتي ستفيدنا في العنصر الإجرائي الميداني عبر تحليل أجوبة طلبة قسم الأنثروبولوجيا بكلية الآداب والعلوم الإنسانيّة بجامعة سوسة–تونس، حيث نستجلي تمثلاتهم الاجتماعية لليوميّ من منطلق تحليل خطاباتهم الكاشفة عن عالم يوميّات وهبوه تعريفا خاصّا من منطلق تجاربهم وأنشطتهم اليوميّة.

2–تمثلات الطلبة للحياة اليوميّة: دراسة ميدانيّة:

لقد ألقيْنا سؤالا مفتوحا على حواليْ خمسينَ طالبا من الجِنسيْن يدْرسون بالسنة الأولى تخصّص أنثروبولوجيا أثناء الدرس العام مفاده: ماذا تعني لك الحياة اليوميّة؟ ولم نتلقَّ سوى عشَرةِ أجوبةٍ مكتوبةٍ من طالباتٍ إناثٍ تتراوح أعمارهنّ بين عشرين وثلاثٍ وعشرينَ سنة، وقد اعتمدنا المقاربة المنهجيّة الكيفية باستخدام المقابلة المفتوحة كتقنية بحثيّة، أمّا البقيّة فقد اختاروا عدم الإجابة. وهذا الأمر لا يدلّ على غموض السؤال بقدر ما يدلّ على صعوبة الإجابة عن سؤال يتعلّقبيومهم الذييعسُر توثيقه في بضْعِ جملٍ أو كلماتٍ كافيةٍ للتعبير عمّا يعيشون فيه من صراعات يوميّة وضغوطات اجتماعيّة وكيفيّة تجاوزها.

وقد مكنتنا هذه التقنية . رُغم قلة الأجوبة . من الولوج إلى التفاصيل اليوميّة البسيطة والهامشيّة للطالبات اللواتي أفصحْن عن علاقاتهنّ بالحياة اليوميّة بصيغٍ مختلفةٍ ومتنوعة. صحيح أنّهنّ أجْمعْن على الجانب التكراريّ للأنشطة الروتينيّة في بعديْها الزماني والمكاني إلاّ أنهنّ اختلفن في طُرُقِ التعبير عنهاوصوْغها.

يمكن أن نوضّح ذلك بالعودة إلى مختلف التصاريح المكتوبة لاستجلاء تمثلاتهنّ الاجتماعية للحياة اليوميّة كمااصطلح عليْها عالم الاجتماع الفرنسي كلود جافو Claude Javeau بقوله: "آه! الحياة يوميّة..."(Javeau, 2011, 3).

في هذا السياق، يمكننا الحديث عن "مقولة التمثلات الاجتماعيّة التي استُخدمت في علم النفس الاجتماعي للدلالة على وظيفة اجتماعيّة عرفانيّة جماعية، بوصفها "شكلا من المعرفة المُبلوَرة والمشتركة اجتماعيا، ذات طابع تطبيقي"، لأنّها "تهدف إلى الفعل في العالم وفي الآخرين"."[1]. وهذا يعني أنّ التمثلات الاجتماعيّة فعل غير مرئي يتجسد في

[1]- Citation tirée de : D.Jodelet, « Représentations sociales : un domaine en expansion », in D.Jodelet (sous la dir.), Les Représentations sociales, Paris, P.U.F, 1989, p.36 et 43-45, in Henri Boyer : Introduction à la sociolinguistique, Paris, Dunod, 2001, p.41

كيفيّة تقديم صورة عن الواقع المعيش في قالب كلمات أو مقاطع جمل تأويليّة تعبّر عن تمثل ألسني اجتماعي (Boyer, 2001, 41) للحياة اليوميّة. يتجلى هذا التمثل من خلال العبارات المستعملة مثل: إنها رتيبة، اليوميّ عقدة، الحياة اليوميّة روتين إبداعيّ، وهي عبارات كشفت عن تصور الطالبات لليوميّ الذي تأرجح بين نَظْرتيْن: الأولى تعتبره يوماً روتينيا متكرّرا والثانية التيتراه منبعَ إبداعٍ وعُقدة أمل.

فإذا كانت الحياة اليوميّة، في نظر الفئة الأولى روتينا متكرّرا فإننا نكتشف أنها إطارا لا يتعدّى حدود الإعادة وتكرارا للأنشطة (من الإثنين إلى الجمعة) المسبّبة للقلق والضغط النفسي، تماهيا مع ما صرّحت به إحدى الطالباتبقولها "إن الحياة اليوميّة بالنسبة لي عبارة عن روتين يتكرّر كل يوم دون تحفيز يذُكر سواء إن كان داخليا أو خارجيا.". إضافة إلى ذلك لا يمكن عزْل الروتين اليومي عن عامل الزمن الذي يلعب دورا محدِّدا، وهذا ما ذهب إليه جافوفي تصنيفه للزمنإلى أربعة أصناف ذكرها على النحو التالي: "1.الوقت الكوني (أو "المادي")، ويتجلى في تعاقب الأيام والليالي والمواسم والمد والجزر ، إلخ. ؛ 2. الوقت البيولوجي، في العمل، في نمو الكائنات الحية وتراجعها، ظواهر داخلية مثل النوم، الهضم، الدورة الشهرية عند النساء، والنبض، والوميض، وما إلى ذلك؛ 3. الوقت النفسي، الموافق أكثر أو أقل لـ "المدة" في بيرجسون، الذي يتعلق بالإدراك العقلي لمرور الوقت، مع انطباعات الحركة البطيئة (التوقعات)، والتسارع (المحن)، التراجع (الحلم، النوم أو اليقظة)، إلخ؛ 4. الوقت الاجتماعي، والذي يحدد تأثير الهياكل الاجتماعية على التدفقات المؤقتة، كما نكتشفه في تسلسل وحدات الوقت، من الثانية إلى القرن، توزيع أوقات النشاط (أسبوع) والراحة (الأحد، أيام العطل)، إلخ."(Javeau, 2011,7).

إنّ الصّنفيْن الأخيريْن المذكوريْن يبرُزان في خطابات الطالبات اللّواتي عرفْن اليوميّ بأساليب لغويّةٍ مختلفة تمرّدن بها على قواعد التخاطب الفصيح حين ترجمن اللهجة الدارجة المضمّنة في تصريحاتهنّ المكتوبة إلى اللغة العربيّة علّهنّ يبلّغْن مقاصدهنّ، وتمثّلهنّ للإطار الزمانيّ المطلَق (الصّنفان 3 و4) دون التقيّدبتاريخ مضبوطٍ. وهذا إن دلّ على شيء فإنه يدلّ على أهمّية الجانب النفسي الاجتماعي للزّمن الّذي مكّن المبحوثات من إعطاء دفقٍ معنويٍّ ليوميٍّ تشكّل من خلال تجاربهن ولقاءاتهن مع الأصدقاء وزملاء الدراسة ليتحوّل فيما بعد إلى معيشٍ منتَجٍ اجتماعيا وألسنيّا، يتجلى ذلك بوضوح من خلال الأماكن التي يتوافدْن عليها وأكثرها مشْربة الكليّة أو كما يسمينها ب"الكافيتيريا" أين يقضِين أوقات فراغهنّ ويتناقشْن مع الأصدقاء في عدّة مواضيع مُتّصلة بفضائهنّ الجامعي أو بحياتهنّ الخاصّة خارج هذا الفضاء.

ظاهريا تبدو المشْربة مكانا فيزيائيا تُحتسَى فيه القهوة إلاّ أنّ في عمقها يتأسس عالم يوميّات هامشيٍّ بعيدا عن الالتزامات التعلّميّة فتغدو فضاء محادثاتياً عفويًّا حرًّا تلتقي فيه الكفاءة الذاتيّة بالمهارة الخِطابيّة، وتتشكّل هذه الأخيرة ضمن سياق اجتماعي شفويٍّ تكسو اللغة بأبعادنفسية واجتماعيّة من جهة وتخضع لضوابط و"مقتضيات التفاعل بين المتكلّم والمستمع." (Conein, 131 ,1983) من جهة أخرى. تمثل المشربة أيضًا –في نظر الطلبة– متنفّسا لا غنى عنه من ضغوط المحاضرات ومواقيتها الزمنيّة في مقامٍ أوّلٍ ومهربا من كل ما له علاقة بالأنا الاجتماعية المؤسساتيّة (الفضاء الجامعي) في مقامٍ ثانٍ. في هذا الفضاء، يتحوّل المتفاعِلون من طلبة داخل الفصل الدراسي إلى فريقٍ فاعِلٍ يُضفى على المشْربةِ معنى خطابيا إيقاعيا. أضحت هذه الأخيرة بمثابة نادٍ موسيقيٍّ –بالطبع– دون آلات استحالت فيه يوميّات الطلبة إلى أوركسترائياتٍ حيث يقدمون فيها معزوفاتهم القوليّة وغير القوليّةبإيقاع محادثاتيٍّ جاذب لانتباه المتفاعلين، تصطبغ نغماتها بجماليتي التخاطب والإلقاء. تفصح هذه الجماليّةعن قدرة الطلبة على إيصال الرسالة المعبّرة عن حياتهم المعيشة بأساليبهم الكلاميّة وغير الكلاميّة لإزاحة الستار عن تكراريّة الأنشطة وفي محاولة لتخطّي الروتين وتحويله من وضعيّةٍ إلى نواةٍ محادثاتيّةٍ مقاوِمةً له.

إضافة إلى ما تمّ ذكره أمكننا إثارة يوميَّيْن إثنيْن: اليوميّ المركزيّ واليوميّ الهامشيّ اللّذيْن اكتشفناهما من خلال الدراسة الميدانيّة. ارتكزالأول على أنشطة يوميّة ظاهريّة متكرّرة في الزمان والمكان مثل الذهاب إلى العمل أو الكليّة لمواكبة المحاضرات، وانتظار الحافلة أو سيارات أجرة (تاكسي فردي أو جماعي)، الاستيقاظ والنوم وغيرها، وهي أنشطة مركزيّة ذات أولويّة ومبنية على الالتزام بما هو مسطّرٌ جماعيا، وأيُّ إخلالٍيؤدي حتما إلى الإقصاء. أمّا الثاني، فقد تجاوز الأول المغمورِ بتنميطات اجتماعية موضوعيّةوحوّل ذلك المركزيَّ إلى مجال خلق وإبداع، وقد اصطبغ بصفة اليوميّ الهامشيّ باعتبار أنّ الفئة الخالقة المبدِعة لعالم يوميّات فريدٍ قليلة، يتجلى ذلك من خلال تصريحيْنلطالبتيْن: حيث صرحت الطّالبة الأولى البالغة من العمر عشرين سنةبأنّ اليوميّ الذي لا يُوجد فيه رتابةٌ لا يمكن أن يكون يوما، وقد برهنت على ذلك بقولها:"أن ذلك الروتين الذي نعيشه هو الذي يجعلني مبدعة أبتكر وأعطي معاني ومفاهيم، كما أنّه يجعلني أفسّر وأحلّل الأشياء وأستنبط شخصيّات متنوعة أوظفها في المسرح،لذلك أرى أن اليومي مهم في الحياة ومنبع لخلق الإبداع عكس الناس الذين يعتبرونه مللا."

نستجلي من هذا التصريح أنّ المبحوثة قد أطلقت العِنان لمخيّلتها الإبداعيّة حتى تنتج خِطابا رمزيّا لا يمكن عزْله عن الاجتماعي المكوّن له ذلك أنّ "الاجتماعيّ لا يوجد خارج الرّمز بل

داخله." (العطري، 2021، 23)، وهو خِطاب مكّنها من رسم مسلك يومها المُخالِف للشروط والضوابط الاجتماعية، التي تنضبط فيها الممارسات والأفعال داخل بِنية مجتمعيّة مهيكَلة جماعيّاتتجلّى فيها التراتبيات الاجتماعية المصنِّفة لموقع الفرد داخل تلك البنية، لتقدّم لنا صورة مغايِرة لذلك اليوميّ المتحرّك في الأزمنة والأمكنة وخارج دائرة الأعراف والعادات المسطَّرة من العائلة ومن مؤسّسة العمل.

وفي هذا السياقتتشكّل مقولة اليوميّ المضادّ أو المبتدَع الذي يظهر من خلال مجموعة الأنشطة الهامشية المارقة عن حدود الأعمال التكرارية المعاد إنتاجها، رُغم ما تمارسه هذه الأخيرة من نفوذ وإكراهات، حيث تتبلور طقوس التفاعل مع الآخر، والتي لم تمنع هذه المبحوثة من تبرير قدرتها على تدبّر ومسايرةهذه الطقوس والالتزامات لترسو بسفينة يومها على مرسى يومٍ استثنائي طوّعت فيه زمن الالتزام بالواجبات الاجتماعية مع زمن هامشيٍّ،ابتكرت فيه ممارساتها الخاصّة كذات فاعلة في البنْيَة الاجتماعية لحياتها اليوميّة.ولئن كان تصريح المبحوثة تجريديّا إلاّ أنّه نبّهنا إلى عُمقِ اليوميّالمشحون بالتناقضات والأضدادأين يجتمع البسيط مع المركّب والمركزيّ مع الهامشيّ مثلما أشار إلى ذلك الباحث المغربي في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا عبد الرحيم العطري مستندا في ذلك على عالم الاجتماع الفرنسي ميشال مافيزوليالذي يرى: "أن الحياة اليوميّة ذاتها لا تعبّر عن نفسها بطريقة دقيقة وواضحة. إنها مكوّنة من أفعال بسيطة ومركبة، ومن الشيء ونقيضه، ومن الهامشيّ والمركزيّ والأساسي والثانوي. إنّها الغموض بعينه." (العطري، 2021، 27). إنّ هذا الغموض المميّز لليوميّ قد مثّل عند الطالبة الثانية عُقدةً لا يمكن فكّها، وقدلمسنا استغرابها من طرح السؤال وهذا يدلّ على أنّ هذا العالم المنسيّ والمعتّاد عليه (اليوميّ) عصيٌّ عن التدوين والتنصيص عليه كمادّة اجتماعيّة تُسرَد فيها أحداث حاضرة وأخرى ماضية مع كل يومٍ يُعاش. لكنّ هذه المبحوثة قد سرَدَتْ "يوميَّها"، حسب عبارة عبد الرحيم العطري، معتمدة على أساليب بلاغية منها التشبيه والمجاز، إذ شبّهت مسارها الرتيب بالحبْل الذي يصلها بحياة أخرى جميلة،واصطلحت عليها ب"أيام الحياة" رغبة منها في تجاوز ذلك الاعتياديَّ المتكرّر عن طريق التشبّث بالأمل للنفاذ إلى الاجتماعي اليوميّ الاستثنائي الذي كتبت تفاصيله بواسطة مخيّلتها الإبداعيّة، مستخدمة مفردات وعبارات أفصحت عمّا يجول في خاطرها ومبدية تمسكها بحبل الحياة مهما حدث لتختِم قولَها بعِبْرةٍ مفادها: لستُ مسؤولا عمّا تفكّر فيه أنت أنا مسؤول عمّا أقول".

إنها الأنا المقاومة لضغوط يوميّاتها والمنتِجة لنصٍّ رامِزٍ ودال على التناقضات المَعيشة، راسمة لنفسها لوحة فسيفسائيّة تلوّنت ب"صراعات/ تسويات/ تفاوضات/ مصالحات رمزيّة..."(العطري، 2021، 28). تكشف لنا هذه القولة عنطبيعة العلاقةالجدلية القائمة بين اليوميّ المركزيّ المنمَّط اجتماعيا ونظيره الهامشيّ الخارق للعادات و"العوايد"(باللهجة السائدة التونسية) أسْهمت فيتبلوُرِهوية ذاتيّة يوميّة خاضعة للمركزيّ من ناحية ومدبِّرة له ومبتكِرة لنسيجها العلائقي المتمرّد على الواقع من ناحية أخرى. يمكن أن نضيف إلى جانب العامليْن الزماني والمكاني الّذيْن مثَّلا شرطيْن محدَّديْن للمحادثات اليوميّة عاملاً آخر يُستحدَث بالمحاورات والتخاطبات وهو المجال، ولا نقصِد بهذا الأخير المكان المادّي الفيزيائي (المقهى، الكليّة، المحطة...) فقط بل ذلك اللامادّي المشحون برموز ودلالات امتزجت بالمُتخيَّلِ المبتَكر من طرف المبحوثات.لقد خوّل لهنّ هذا الأخير (المتخيَّل)كتابة رواياتهنّ اليوميّة بأسلوب لغويّ أظهرْن فيه قدراتهنّ على امتلاك اللغة وإعادة انتاجها ضمن مجالٍ تفاعلي منتَظَمٍصُلب عملية تواصلية ممزوجة بالمشاعر والأحاسيس.

لقد غَدَا هذا المجال التفاعليُّ مجالا سلطويّا قائما على الهيمنة ضمن حقل لغويّ متعدّد المعاني، وهذا يعني أنّ " التّبادلات الألسنيّة هي أيضا علاقات سلطة رمزية أين تُحيّن علاقات القوة بين المتخاطبين ومجموعتهم(...)"(Bourdieu, 1982, 14). ومن منطلق هذه العلاقات ينبثق الخطاب اليوميّ المشيّدِ لفظًا وممارسة والمشحون بالبُعديْن المادّي والرمزيُّ لينبجس ما يُسمّى بالتناصّ الاجتماعي (L'intertextualité social)المؤشِّر على تداخل النصوص التفاعليّة اليوميّة المسرودة مع النصوص الاجتماعيّة المسنودة بإرثٍ ثقافيّ ثابتٍ رامز إلى الرتبة الاجتماعية والهيبة، ويُؤشّر العطري على التناصِ قائلا:"هو حالة أدبيّة يتشكّل بموجبها نصّ معيّن بالاعتماد على نصوص أخرى، إنّه واقعة تؤكّد استحالة ادعاء "الملكية المطلقة للنص، ولا القول بحدوده الصارمة، فدوما هناك تناص مع نصوصٍ أخرى." (العطري، 2021، 33).

يمكّننا هذا التداخل من فهم التباسات الخطابات اليوميّة المرويّةِ الّتي اختلطت فيها القيم الموضوعيّة المستمَدّة من العائلة مع القيم التي أنتجتها الطالبات لحظة الاحتكاك بالآخرين أصدقاء كانوا أو زملاء أو أشخاصا عابرين، وأتاح لنا هذا الامتزاج بناء عالم يوميّات حضرت فيها جميع التخصصات والعلوم الإنسانية والمعرفية(الأدبية، الأنثروبولوجية، الاجتماعية، الجغرافيّة والنفسيّة)تدفق من خلال حضورها فعل خطابيّ جامع بينها حيث أنّ استعمال اللغة السائدة في التصريحات المجمَّعة ينضوي تحت الجانب الأدبيّ الاجتماعي المتجاوِز لضوابط الخطاب الأدبي الفصيح، وأيضا ذكر الأصل الاجتماعي الذي يدلّ على خصوصيّة الثقافة التي

ينتمي إليها كل فرد في مجتمع البحث يمثل الجانب الأنثروبولوجي غير المعزول عن الخصائص الجغرافية المميّزة لتلك الثقافة (من المناطق الساحليّة التونسية أو الداخليّة) ودون أن ننسى الجانب النفسيّ الحاضر بقوة في الأجوبة والذي نبّهنا إلى أنّ الحياة اليوميّة لا تُختزَل في مجرد التكرار والرتابة وإنّما هي مكْمن مشاعر مكبوتة تتصارع فيها الفواعل الاجتماعية مع ذواتها كبنية نفسية داخلية لتتمظهر أثناء التفاعلات بطريقة مباشرة عبر إخراج المكبوت(غضب أو حزن أو فرح....)، والإفصاح عنه كلاميًّا أو بطريقة غير مباشرة عبر محاولة كبحه لكسب رهان القبول من المجموعة.

كل ذلك يجعلنا نضع نُصْبَ أعيننا أهمية هذا الجانب النفسيّ الذي بواسطته نستطيع فك شِفْرة اليوميّ الكامن في التفاصيل البسيطة والبديهيّة. ومن هذا المنطلق يجوز لنا التنصيص على مقولة اكتشفناها في دراستنا الميدانية وهي الإنسان اليومي المتشظّي"، يكمن سبب اعتماد هذه المقولة في اعتبار أنّ اليوميّ لا يستقرّ على بنية ثابتة ومهيكَلة، وهذا اللااستقرار الّذي أفرز صعوبة في إيجاد تعريف نظريّ موحّد لمسألة اليوميّ نابع من التغيّر المطّرد للأنشطة والأفعال المتأتّي من الإنسان الّذي تارة يخضع لمستلزمات الحياة الروتينيّة ولضغوطاتها، وطورا متدبّرا ومحتالا على البنى المجتمعية الكلّية من أجل إحداث نواة يومه الخاصّة.

تؤشر مقولة "الإنسان اليوميّ المتشظي" على فرد يعيش ثلاث حيوات: أوّلها مركزيّةً بأولوياتها والتزاماتها الاجتماعية وثانيها هامشيّةًينقشها على صفحات روايته المدوَّنة على جدران تفاعلاته الاجتماعية اليوميّة، وثالثها افتراضيّةً أنشأها على شبكات التواصل الاجتماعي للهروب من الحياتيْنالسابقتيْن علّه ينفذ إلى عالمٍ جديد مخالِفٍ لما يعيشه على أرض الواقع، وهذا ما اكتشفناه من خلال إجابة طالبة رأت في الاحتكاك الافتراضي حلاًّ ناجعا لتجنّب النفاق الاجتماعي الذي تواجهه في محيطهااليوميّ.وتماهيا مع ذلك، ألقت شبكات التواصل الاجتماعي (الفايسبوك، الأنستغرام، التيك توك...) بظلالها على الحاضر المعيش لتزيد من تشابكيّة الواقع اليوميّ الذي استحال إلى منصّة رقميّة يتقاسمها المستخدمون لهذه الشبكات لأغراض مختلفة إما للسخرية من رتابة المعيش أو للتّناقشِ في مواضيع اجتماعية أو للهروب والانفلات من كل الضغوط والالتزامات الاجتماعية.

يقودنا هذا إلى القول بأنّ التناصّ الاجتماعيّ لا يتصل فقط بالمحادثات الوُجاهيّةٍ (وجها لوجهٍ)فحسب وإنّما كذلك بالافتراضي الذي أعرب فيه المستخدمون عن تمثلاتهم لليوميّ من خلال تعليقات مكتوبة تخفي وجوههم الحقيقية خلف شاشةٍ ذكيّة لا تعبّر بالضرورة عن حقيقة الشخص

المتّصِل.لقد خلقت شبكات التواصل الاجتماعي بمختلف مسمّياتها فضاءً اتصاليا بين المحتكّين بها إذ بان بالكاشف قدرة كل فردٍ على إظهار "كفاءته التواصليّة" (Hymes, 1984) التي تشكّلت من خلال حسن توظيف مهاراته اللغويّة والتلاعب بالكلمات لإيصال رسالة مقنِعة إلى الأطراف الأخرى المتفاعلة معه، وقد تبيّنّا ذلك من خلال تصريح الطالبة التي رأت في التواصل الافتراضي السبيل الأنجع للابتعاد عن كل ما يعكّر صفْوَ يوميّها(وهي مفردة استعرناها من الباحث المغربي عبد الرحيم العطري).

عبر التصريح المذكور آنِفًا عن تمثل مخصوص للتناقضات التي اصطبغت بالحياة اليوميّة المراوحة بين المركزي والهامشي والبسيط والمركّب والحاملة لمؤثرات صوريّة وصوتيّة حتّى صارت تشبه السينما(Morin, 1956) ممّا جعل منها حياةً يوميّةً امتزج فيها الواقعيُّ الروتينيُّ المتكرّر باللاواقعيّ الانسيابيّالمبتَدَع من طرف الطالبة المبحوثة لمقاومة الأوّل (الواقعيّ الروتينيّ المتكرّر). وبالتالي مثّلت مَلَكة المتخيَّلِ منطلَقا للطالبات للإفصاح عمّا يجول في أذهانهنّ من صُورٍ ونصوصٍ تجاه اليوميَّ الذي ما انفكَّكْن يُصارعْنه في صمتٍ كيْ يتمكّنَّ من ابتكار يوميّهِنّ الحافل بالتنوّع والتجديد في الممارسات الخطابيّة من خلال إثارة عِدّة مواضيع في الشأن العام لكسر الروتين، وذلك ما سيخوّل لهنّ بناء هويّاتهنّ اليوميّة الديناميكيّة المراوحة بين الروتيني الذي لا مفرّ منه والهامشيّ المبتَكَر وكذلك الافتراضيّ الخارق لكل التفاصيل الحياتيّة.

إضافة إلى ما تم ذكره سابقا،يمكننا طرح سؤال نراه مهما في تفكيك الخطاب اليوميّ والتعمّق فيه مفاده: كيف تتحوّل المحادثات المتداوَلة بين الطلبة من وسيلة لكسر التكرار إلى حقل ممارسةٍ وإنجازٍ، على حدّ تعبير هارولد غارفنكل،فيصبح ذي معنى يوظف فيه الطلبة كفاءاتهم التواصليّة؟

وبالعودة إلى أثر هارولد غارفنكل المذكور سلَفًا نجد إسهابه في تفكيك الممارسات اليوميّة في قالب ثلاثة مفاهيمَ نذكرها على النحو التالي:

يتمثل المفهوم الأوّل في الممارسة /الإنجاز، وقد بيّن ذلك من خلال قوله: "إنها تتعلّق ب: (1)استخدامات أعضاء للأنشطة اليومية كطرق يمكن من خلالها التعرف وإظهار التكرار المحتمل والنموذجي والموحد والمظهر المتصل والاتساق والتكافؤ وقابلية الاستبدال والاتجاهية والوصف المجهول والمخطط – باختصار، الخصائص العقلانية للعبارات المعجمية وللأفعال المفهرسة.(2)وتتكون هذه الظاهرة أيضًا من إمكانية تحليل الأفعال في السياق، نظرًا لعدم وجود مفهوم للسياق بشكل عام فحسب، بل إن كل استخدام لـ "السياق" دون استثناء هو في حد ذاته

مؤشر بشكل أساسي." (Garfinkel, 1967, 10). إنّ المقصِد من هذا القول هو أن الواقع الاجتماعي من صُنع الأفراد بوصفهم أعضاءً فيه. وهذا الصنع أو الإنشاء يرتكز على الطرائق التي يتصرف بها الأعضاء في ممارسة أي نشاط (الذهاب إلى العمل، التجوّل...) وتدعيمه بتبريراتهم المنطقية المتجلّيةِ في طرق التعبير عنها تعبيرا تأشيريّا أو مفهرسا ضمن سياق اجتماعيّ محدّدٍ من طرفِهِمْ.

تقودنا هذه الفكرة إلى المفهوم الثاني وهو الفهرسة أو التأشيرية، وتعني هذه الأخيرة –حسب غارفنكل– أنّ حلَّ تشابكيّة الحياة اليوميّة دون العودة إلى اللهجة العامّية، وما تتضمنه من مرادفات مشفوعة بتعابير الوجه للإفصاح عن الحالة النفسية للمتكلّم، يجعل من البحث السوسيولوجي أعرجًا لا يمتّ للواقع بصلة. وعليه، وجب العودة إلى المفردات والكلمات المستخدمة من طرف الأفراد للتأشير على ظرفيْن زمنيٍ ومكانيٍ مطلقيْن (من قبيل: غادي (هناك)، أكا المرة (ذات مرّة) وغيرها.) والتي لا يمكن فهمها خارج سياقها الاجتماعي التواصلي الحينيّ الذي تشكّلت فيه المحادثة. ويدلّ ذلك أنّ التفاعلات اليوميّة لا تتمّ عن ممارسات تلقائيّة فحسب بل تبوح أيضا عن معيشٍ منطوقٍ تخالجه مشاعر ممزوجة بإرهاصات الضغوط تارة وببوادر ابتكار وخلق يومٍ متجدّد طورا في نفوس المتخاطبين. إذا تعلق الأمر بالفئة الطلابية المبحوثة فقد قدّمت لنا أجوبةً عرّف فيها كلّ فردٍ اليوميّ بطريقته الخاصّة المعبّرة عن استخدام كل طالب لسياق معيّن حتى يتمكن من تنزيل تصريحه ضمنه كي يشعر أنّه امتلكه بتعابيره اللفظية وغير اللفظية. إنّ السياق، في هذه الحالة، لا يرتبط بزمان ومكان الالتقاء فقط بل بالمتحدّث أيْ سيرته الذاتية: مكانته الاجتماعية، علاقته بالمستمعين: صداقة أو عابر سبيل أو جارٍ، كلّها عناصر من شأنها أن تمكّننا من فهم موقعه داخل اللعبة التفاعليّة.

وما اكتشفناه في تصريحات الطلبة أنّ تفاعلاتهم اليوميّة تكون مع بعضهم البعض أو مع أصدقاء من خارج الفضاء الجامعي في أغلب الأحيان، ولكن ما يهمّنا أكثر هو تأشيرهم على تصريحاتهم باستعمال ضمير المتكلّم "أنا"، وهو ما يؤشّر على "أنا يوميّة" متجوّلة بين أركان المحادثات فتحضر أحيانا كمالكة لحلقة التواصل وتغيب أحيانا أخرى في حضرة "النحن" المتحكّمة في تسيير المحادثة فنلاحظ هذه الجيئة والذهاب بين الأنا المبتكرة ليوميّها الخاص والنحن الفارضة لطقوس تفاعل حتى لا تخرج المحاورات عن نواميس المجموعة. لقد أشرْنا في فكرة سابقة إلى تحوّل مشربة الكلية إلى فضاء محادثاتيّ جماعيّ عن طريق خلق مواضيع أو ابتكار نُكَتٍ مضحِكة لجعْل هذا الفضاء المغلق فضاء مُحاكِيًا لحياةٍ شارعيّة تلتقي فيها التفاعلات منها

العابرة، من خلال إلقاء تحية على الجالسين أمام منازلهم ومنها الثابتة المتعلقة بالأصدقاء أو الجيران المقيمين بالحي. فعالم المشربة ينبني على قواعد ونواميس ضابطة لسيْر عملية التفاعل المتّصِفةِ بالانعكاسية التي مثلت المفهوم الثالث عند غارفنكل.

تؤشّر الانعكاسية على التصرّفات الغير خاضعة للمنطق الحسابي التي يهب من خلالها الفرد جانبا من حسن وصف وتحليل سلوكه وإعطائه مبررات تتلاءم مع الوضعية التفاعلية الموجود فيها، وذلك من خلال تمرير رسالة إلى الطرف الآخر (فردا أو مؤسسة) قِوامها: أنا أفعل ما أقول أيْ أنّه باستطاعته أن يجعل من تصرّفه ملحوظا أمام الآخرين والذي لا يمكن أن تترسّخ انعكاسيته إلا عبر حجج كلاميّة مشحونة بمعانٍ ورموزٍ بُنِيت بواسطة تمثلات الفرد للإطار الاجتماعي المنخرِط فيه. من هذا المنطلق، قدّمت الفئة الطلابية المبحوثة وصفًا خاصًّا لليوْميّ اصطبغ بالانعكاسيّة التي تجلّت في طرائق تعبيرهم عن أنشطتهم اليوميّة المؤثّثة بتفاعلاتهم الكلاميّةمن أجل إيصال رسالة مشفَّرةٍ مفصِحة عن إنشاء عالم يوميّات مُخالِف للمتكرّر أسميْناه بالهامشيّ.

لقد أطلقت تلك الفئةحريتها التعبيريّة الممزوجة بالبوْح تارة وبالصمت تارة أخرى لتبتدِع داخل عالمها الهامشيّ المبتَكَرخطابها اليوميّ العابر للمؤثرات الزمانيّة والمكانيّة والمتحرّر من ضغوط عالم اليوميّات المركزيّ، وهو ما مكّنها من إثبات انتمائها إلى شبكة تواصل شكّلتها بطريقة تسنح لها ممارسة سلطتها الكلامية على المتفاعلين معها لتهيمن على فضائها اللغويّ. ترمُز هذه الهيمنة إلى امتلاك كل طالب رأسماله الألْسُني لإثبات وجوده ضمن سوق لغويّة، على حد تعبير عالم الاجتماع الفرنسي بيار بورديو، تُتبادَل فيها المواقف المعبّرة عن تجارب معيشة ووضعيات وأحداثٍ، وكذلك لإظهار كفاءته التواصلية. لقد أشرنا إلى هذه الأخيرة سَلَفًا باختصار حينما ربطنا الكفاءة التواصليّة بشبكات التواصل الاجتماعي الافتراضي وما أفرزته من تدفّقٍ سريع للمعلومات بين المحتكين بالأنترنات. وللتوسّع أكثر، وجب العودة إلى ما أثاره الأنثروبولوجي الأمريكي Dell Hymes حول مفهوم الكفاءة التواصليّة في كتابه: "نحو الكفاءة التواصليّة" الصّادر سنة 1984 حيث نتبيّن من خلاله أنّ هذه الكفاءة تُشيَّدُ بواسطة مهارات الأفراد في استخدام اللغة ومواءمتها مع سياقها الاجتماعي ومع "الأنماط التواصلية الأخرى الغير لفظيّة المتمثلة في الإيماءات والإشارات وتعابير الوجه."(Hymes, 1984, 128)، كلها عناصر تؤثّر على سيْر العملية الاتصاليّة وما ينتج عنها من ردود أفعالٍ قابلة أو رافضة لطريقة عرْض المتفاعل نفسه أمام المجموعة.

إنّ انطلاقنا من التجربة المعيشة للطلبة وإعطائهم المِصدح ليعبروا عن يوميّهم مكّننا من الخروج من دائرة الإسقاطات النظرية والبحث عن إثباتٍ عبر فرضياتٍ مسبَّقة لنستخرج منها قوانين موضوعية في مرحلةٍ لاحقة، واكتشاف تشكّل هوياتهم اليوميّة الديناميكيّة العابرة للمواقيت الزمنيّة والمعايير المكانيّة للتواصل والتفاعل.فالهويّة اليوميّة لا تختزل فقط الجوانب الذاتية والنفسية المنطوقة في الخطابات اليوميّة للطلبة بل تعكس أيضا الجوانب الصامتة التي لا يبوح بها الطلبة المتخاطبون ويحتفظون بها ويخفونها عن الآخرين من خلال تمرير رسالة كلامية معزّزة بالإيماءات وتعابير الوجه تخبّئ حقيقة ما يخالجهم من شعور وإقناع المنخرطين في المحادثة بأنّ مقصِد الرسالة هو نفسه ماورد فيها، وهنا تتجلى الانعكاسيّة التي استحالت إلى لعبة تواصليّة يتحكم الطلبة من خلالها في نفسياتهم وفي دوافعهم ولكن سُرعان ما تتكشف المشاعر المخبَّأةِ على مواقع التواصل الاجتماعي وخاصّة الفايسبوك من خلال استعمال الرموز التعبيرية (الإيموجي)، كما لا يمكن أن نفهم الانعكاسيّة إلا من خلال وضع الممارسة الخطابية في إطارها الذي تشكّلت فيه لنفهم المعنى والدلالات. في هذا الإطار، أمكننا التوسع في تحليل واقع التواصل الافتراضي الذي وجد فيه أحد الطلبة المستجوَبين متنفَّسًا من "النفاق الاجتماعي".

إنّ مفردة شبكة"قديمة جدًّا، ومرّ تاريخ استعمالها في اللغة الفرنسيّة عبر مسار طويل، منذ ظهورها الأوّل في القرن السابع عشر، للإشارة إلى نسيج استخدمه الصيّادون كمِصْيَدةٍ (شبكة صيد) أو السيّدات كغِطاء للرأس (شبكة شعرٍ)، مرورا باستخداماتها الطبّيّة (الشبكة الدمويّة، الشبكة العصبيّة) ابتداء من القرن الثامن عشر، وإلى حدود القرن التاسع عشر صارت تؤشّر على شبكة الطرقات والسكك الحديديّة التي تمرّ من منطقة أو دولة."(Mercklé, 2016,6).لقد تطوّر مفهوم الشبكة في القرن التاسع عشر ليعنيَ شبكة الاتصالات السلكية واللاسلكيّة، إلى أن جاء القرن الحادي والعشرون الذي شهد تشكّل شبكة من نوعٍ آخر جعلت من العالم قرية صغيرة، إنها شبكة التواصل الاجتماعي "الفايسبوك" الذي نشأ سنة 2004 . لن نطيل الحديث في موضوع الفايسبوك باعتبار أنّ طرحنا في هذه الورقة يتّصل بطرائق التفاعل والتواصل في الحياة اليوميّة وكان التواصل الافتراضي من بين الأفكار الواردة في بحثنا، ولكنّ ذلك لا يمنعنا من إثارة هذا النوع من التواصل الذي تمرّد على النمط التواصلي وجها لوجه.

فعلى شبكة التواصل الاجتماعي "الفايسبوك"، أو كما وسمه البعض بالفضاء الأزرق، تشكّلت علاقات بين أفراد محتكّين بالشبكة تتراوح بين ترابطات ثابتة على أساس المعارِفِ(أصدقاء)أو جيران أو عائلة وأخرى عابرة تبلورت أثناء إرسال طلبات صداقة إلى أفراد آخرين من أجل توسيع

دائرة التعارف الافتراضي وتعزيز الرصيد المعرفي بهذا العالم الذي صار واقعا يوميّا. من هذا المنطلق غَدتْ الحياة اليوميّة حياةً افتراضيّةً أضحى فيها عالم اليوميّ التكراريّ متداوَلًا على هذا الفضاء الأزرق اللامتناهي من ناحية المواضيع المُثَارة والصور المروَّجة.

وماجلب انتباهنا في عالم الفايسبوك أو كما يمكن ترجمته ب "كتاب الوجه" هو قدرة كل مستخدِمٍ على إبداء كفاءته التواصليّة، بتعبيرة الأنثروبولوجي الأمريكي Dell Hymes، من خلال ما ينشره على هذه الشبكة الافتراضية من تدوينات تثير عدة مواضيع مثل العودة المدرسية بتونس وما يرافقها من تعابير هزلية من قبيل "عاودولنا العطلة ما تفرهدناش" وكذلك عدة أحداث وقعت على الساحة السياسية والاجتماعية التونسية وما رافقتها من تعاليق وتأويلات متنوعة. مكّنت هذه الكفاءة التواصلية المتفاعلون على الشبكة الفايسبوكية من تكوين "الأنا اليوميّة الافتراضية" التي ساهمت في تعريف اليوميّ المعيش من منطلق التمفصل بين التجارب الاجتماعية المشكَّلة أثناء التفاعلات اليوميّة وجها لوجه والترابطات المكوَّنة على الفضاء الافتراضي القابلة للتشكّل (قبول طلب صداقة)، للتفكّك (الحظْر أو الإخراج من قائمة الأصدقاء) وإعادة التشكّل من جديد (طلبات صداقة جديدة). ينير هذا التمفصل الطريق أمام فهم اليوميّ البسيط والمركب في آنٍ واحدٍ، فهو بسيط باعتباره تلقائيّا من حيث الأنشطة والممارسات ولكنّه مركّبٌ باعتباره منفلتًا من كل حصْرٍ تعريفيٍّ، وهو ما دفعنا إلى الاستنتاج في فكرة سابقة بوجود ثلاث حيواتٍ يوميّةٍ: مركزية، هامشيّة وافتراضية مهّدت السبيل أمام تشكّل "الإنسان اليوميّ المتشظّي. لذلك فإن الإقرار بحضور هذا الأخير في التفاصيل الحياتيّة يعود إلى تعقّد اليوميّ من الناحية المفهوميّة وامتداد تشابكيّته إلى فواصل الممارسة الواقعيّة بسجِلاّتِها الخطابيّة التفاعلية المتنوّعة من الناحية الإجرائية الميدانيّة.

3- نتائج البحث ومناقشتها:

لقد سعيْنا في ورقتنا البحثية إلى التوليف بين التعدّدية النظريّة لمبحث اليوميّ ونظيرتها الإجرائية التي اكتشفنا من خلالها تعدّد وجهات النظر حول هذا الموضوع، وهذه التعددية تمخّضت عن تمثلات الفئة الطلابية لعالم الرتابة والبساطة لنتمكّن، في مرحلة لاحقة، من فهم تناقضاته المسجَّلة في تجاربها المعبّرة عن علاقتها باليومي زمنيّا ومكانيّا وكذلك كلاميّا.

وبذلك تتمثّل نتائج دراستنا الميدانيّة فيما يلي:

أوّلا، ليست الحياة اليوميّة توقيتا زمنيّا بل هي عالم حيويّ، نشيط وخارق للمعيار الزمني البيولوجي.

ثانيا، تقدم تمثلات الفئة الطلاّبية للحياة اليوميّة صورة ذهنية رمزيّة أفرزت مِخيالا اجتماعيا امتزج فيه البسيط مع المركّب والذاتي مع الموضوعي والمادّي مع الرمزيّ.

ثالثا، تكشف قدرة المبحوثات على تحويل الروتين اليوميّ إلى نصّ خَطابيّ عن جدارتهنّ في خرْقه وتدوين عالم يوميّ جديد مبتكَر.

رابعا، يستمدّ هذا الابتكار مغزاه من لهجة يوميّة حرّة لا تتقيّد بأيّة قاعدة لغويّة ولكنّها، في المقابل، مقيَّدة بسياق اجتماعي تفاعلي ضابطٍ لسير العملية التواصلية.

خامسا، تمثل اللهجة اليوميّة منطلقا لبناء فهم علمي عميق للتخاطب بالعودة إلى سياقه الاجتماعي المتفاعَل فيه.

سادسا، يعكس التواصل اليومي قدرة الطلبة على إظهار كفاءاتهم التواصلية في تبليغ المقصود.

سابعا، غَدت الحياة اليوميّة حياة افتراضيّة من خلال كسر الروتين المعيش على أرض الواقع والتواصل افتراضيا مع أشخاص آخرين للهروب من التكرار والبحث عن يوميٍّ متجدّدٍ ولو بصفة مؤقّتةٍ على الشبكة العنكبوتيّة.

ثامنا، إنّ الحياة اليوميّة حيواتٌ متشظّية تكوّنت بفعل تداخل المركزي والهامشيّ والافتراضي.

تبقى النتائج المتوصّل إليها نسبية نظرا لأنّ مسألة اليومي لا تزال تَسكِبُ حبورا وتسترعي الاهتمام بها أكثر باعتبار أنّ المواضيع المطروقة في العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة بحاجة إلى الاهتمام بالجانب المعيش اليوميّ ممّا يساعد على إرساء مقاربة عابرة للتخصّصات والعلوم.

خاتمة:

في ختام بحثنا، يمكننا القول بأنّ الاشتغال على موضوع اليوميّ لم يكنْ سهلا بالمرّة باعتبار أنّ التأليف بين النظري والميداني تطلّب منا الانغماس في المجاهِرِ الاجتماعية اليوميّة التي وجدنا في أعماقها اليوميّ البسيط والمركّب في الآن ذاته، أي ذلك المتناقِضُ المتأرجح بين التكراريّ والمبتكَر، وحاولْنا من خلال دراستنا الميدانيّة استجلاء هذا التناقض لنبين للقارئ والمنصت زئبقيّة ذلك اليوميّ.

وقد ساعدتنا المقاربة التفهميّة على الولوج إلى الميكروسوسيولوجي المنسيّ بواسطة المنهج الكيفي من خلال استخدام المقابلة المفتوحة كتقنية بحثيّة كيفيّة تهتم بالتفاصيل الكامنة في الأفعال والممارسات اليوميّة من ناحية وتتجاوز التنظيرات الماكروسوسيولوجية المتغافِلة عن اليوميّ والمهتمّة بالكلّ الاجتماعي من ناحية أخرى.

المراجع:

1- التريكي، فتحي.(2009). فلسفة الحياة اليوميّة، الدار المتوسّطية للنشر، تونس

2- العطري، عبد الرحيم. (2021). "مقدّمة في سوسيولوجيا الحياة اليوميّة: من الرمزي إلى التناص الاجتماعي"، إنسانيات، عدد94، أكتوبر- ديسمبر، ص.17- 41

3- النويري، (محمد نجيب) (الإشراف). (2009). "الإنسان والمخيال": منتدى الثقافة الشعبيّة، المنامة- مملكة البحرين، 13-14 أفريل، مجلة الثقافة الشعبيّة، العدد السابع، ص.179-197

4- Blanchot, Maurice. (1969). L'entretien infini, Paris, Gallimard

5- Bourdieu, Pierre.(1982). Ce que parler veut dire : L'économie des échanges, Paris, A. Fayard

6- Boyer, Henri 2001. Introduction à la sociolinguistique, Paris, Dumont

7- Coulon, Alain. (2014). L'ethnométhodologie, Paris, P.U.F, 6ème édition

8- Conein, Bernard. (1983). « Langage ordinaire et conversation : Recherches sociologiques en analyse de discours », In : Mots, n°7, pp.125-142

9- Durand, Gilbert. (1992). Les structures anthropologiques de l'imaginaire : Introduction à l'archétypologie générale, Paris, P.U.F, 11ème édition

10- Freud, Sigmund (1901). La psychopathologie de le vie quotidienne : Application de la psychanalyse à l'interprétation des actes de la vie quotidienne, traduit de l'Allemand par le Dr.S.Jankélévitch en 1922.

11- Garfinkel, Harold. (1967). Studies in ETHNOMETHODOLOGY, New Jersey, Prentice Hall, INC, Englewood Cliffs.

12- Goffman, Erving. (1973). La mise en scène de la vie quotidienne, tome 1 : La présentation de soi Paris, les Editions de Minuit.

13- Hymes, Dell H. (1984). Vers la compétence de la communication, Traduction de France Mugler, Franklinn and Marshall College, Pennsylvania.

14- Javeau, Claude. (2011). Sociologie de la vie quotidienne, Paris, P.U.F.

15- Maffesoli, Michel. (1979). La conquête du présent : Pour une sociologie de la vie quotidienne, Paris, Presses Universitaires de France.

16- Mercklé, Pierre. (2016). La sociologie des réseaux sociaux, Paris, La Découverte, troisième édition.

17- Morin, Edgar. (1956). Le cinéma ou l'homme imaginaire : Essai d'anthropologie, Paris, Les Editions de Minuit.